في البدء كانت . . "المعرفة"!

د. زياد بن عبد الله الدريس

من «الصحة» إلى العافية

في عام ١٤١٦هـ كنت موظفاً بوزارة الصحة، أعمل في مجال دراستي وتخصصي (العلوم الأحيائية). أما هوايتي (الكتابة) فكنت أزوالها بمزاجي بين حين وآخر. لم يخطر ببالي أن أتفرغ للعمل الصحفي أو الثقافي، برغم أكثر من عرض تلقيته من الصحف السعودية، كنت أظن وما زلت أن العمل في الصحافة محرقة للثقافة.

في أحد المساءات جاءني اتصال من الصديق الدكتور سلطان باهبري يعرض عليَّ استلام مسؤولية تحرير مجلة المعرفة، منذ أن سمعت كلمة (مجلة) تحرك عندي هاجس (المحرقة). قال لي سلطان مطمئناً أو محذراً: هذه ليست مجلة بالمفهوم الصحفي الذي في ذهنك، هذه دورية شهرية تعني بالثقافة التربوية، ولذا فهي عمل ثقافي أكثر مما هو صحفي.

هذا هو التفسير الوحيد الذي جعلني أوافق على خوض التجربة. قلت لزملائي في وزارة الصحة عند الوداع: بعد أشهر من التجربة سأخبركم إن كنت قد انتقلت من «الصحة» إلى «المرض»، أم من الصحة إلى العافية!!

مضيت في تجربة «المعرفة» وفي نيتي البقاء سنة.. أو سنتين لو طاب المقام، أتممت عشر سنين في «المعرفة» كانت من أثمن وأسمن أيام عملي وحياتي.

وكنت وما زلت أتساءل: لو لم يكن الرئيس المباشر آنذاك هو معالي الأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الرشيد، هل كنت سأستمر ١٠ سنوات؟ بل الأهم: هل كنت سأستطيع إنجاز ما تحقق لـ «المعرفة» من مكانة ونجاح يغري بالاستمرار فيها؟!

المندوب الدائم للمملكة العربية السعودية في باريس، ورئيس تحرير مجلة المعرفة سابقاً.

البروفة الأولى

كان ذلك اليوم هو موعد عرض (البروفة الأولى) للمجلة أمام الوزير، كما قال لي كبار مسؤولي الوزارة.

بالنسبة لي كنت محتاراً هل هي البروفة الأولى لعرض (المعرفة) أم البروفة الأولى لعرض (زياد) أمام الوزير!! كنت أسمع بمحمد الرشيد وربما التقيته مرة أو مرتين عن بعد، لكنه الآن (وزير) وهذه هي البروفة الأولى لي للعمل مع وزير.

لأول مرة أقف بجانب وزير بهذا الاقتراب. كنت أظن لسنين طويلة: أن المنطقة المحيطة بالوزير معلق عليها لوحات مرور «افتراضية»، مكتوب عليها: (ممنوع الوقوف)، و(ممنوع الاقتراب قطعياً)، وأنه سيتم سحب (دمك) عند الوقوف في هذا المكان.. بجانب الوزير!!

كان معالي الدكتور محمد الرشيد أول وزير أقف بالقرب منه دون أن أحصل على (مخالفة)!

أُدرك أنه خلال العشر أو الخمس عشرة سنة الماضية تغيرت أمور كثيرة، تلاشت كثيرٌ، (وليس كل!) من لوحات (ممنوع الاقتراب) بجانب الوزراء. أصبح النظام المروري في حارة البورجوازية والأرستقراطية أكثر مرونة مما كنت أتصور، أصبح مألوفاً الوقوف جنب الوزير، واستعمال المنبه أمام المسؤول، وإضاءة الأنوار العالية في الطرقات المظلمة، ومناداة الوزير من دون لقبه (العسكري)!

محمد الرشيد كان أحد أول معاول هدم هذه الحواجز بين الوزير والموزور.

خرافة الصلاحيات

لطالما سمعت وقرأت عن خرافة إدارية اسمها (تفويض الصلاحيات). هي خرافة يبشر بها الإداريون ويغتالها المديرون، أولئك الذين يظنون أن إعطاء صلاحيات للموظفين يعني، أقل ما يعنيه، التخلي عن بعض (الحبال) التي بيد المدير!

بـدأت في اختيار الأسماء التـي سنستكتبها في مجلة (المعرفة)، وضعت في الورقة: فلان وفلان وفلان... دخل عليَّ في المكتب (فاعل خير!) سألني: ماذا تفعل؟ قلت: أضع أسمـاء مقترحـة للكتابة في المجلة. قـال: وهل عرضتها على الوزيـر؟ قلت له لا، ولماذا أعرضهـا، أنـا المسـؤول عن تحرير المجلـة، وأنا الأعـرف بالكتّـاب الملائمين للمجلة وللمنـاخ المحيط بها؟! قال لي فاعل الخير: أنت مازلـت حديث تجربة في موقع سياسي مثل هـذا، لابد من الاستئذان في أسماء الكتّاب ودولهـم وتوجهاتهم. غداً تذهب بقائمة الأسماء هذه وتُعرضها على الوزير، هو سيختار منها من يناسبه ويستبعد آخرين.

بدأت أفكر في العودة إلى (الصحة) بدلاً من البقاء مع (مرض) الشكوك والتخوين. بدأت أتذكر (قناعتي) القديمة أن العمل في الصحافة محرقة للثقافة.

مـن الغـد ذهبت إلى الوزير، قال لـي: كيف تسير الاستعدادات لإصـدار العدد الأول من (المعرفة)؟ قلت له: كما تحب (قلتها وأنا أتخيل لوحة ممنوع الاقتراب هذا اليوم!)، وقدمـت لـه قائمة الأسماء. قبـل أن يفتحها سألني: ما هذه؟ قلـت: معاليكم، هذه قائمة أسماء مقترحة للاستكتاب في المعرفة، لعل معاليكم يطلّع عليها إن كان لدى معاليكم أيّ تحفـظ على بعض الأسماء أو أن معاليكـم يرغب إضافة أسماء أخرى (أعني من معارفه وأصدقائـه). لـم يفتح د. الرشيد الورقة، أقولها للأمانـة، أعادها إليّ دون أن يطّلع على الأسمـاء، وقال لي عبـارة، كانت هي الوقود الذي عملت به طـوال عشر سنوات معه: (يا زيـاد أنـا ما وضعتك مسؤولاً عـن المجلة حتى تأتيني كل يوم والثانـي تعرض عليّ أسماء كتّاب أو عناوين أبواب أو ربما ألوان أغلفة يوماً ما، لو لم أكن أثق فيك وفي معاييرك لما وضعتك مسؤولاً أصلاً).

خرجـت من عند الوزير وأنـا أشعر أني شريك معه في اللقـب والمنصب، أما قائمة الأسماء التي لم تُفتح، فقد أهديتها إلى فاعل الخير كي يضع اسمه فيها إن شاء!

كان ذلـك الموقـف محورياً فـي مسيرتي مع (المعرفة) التي أتاح لهـا د. الرشيد أن تنطلق حيث كان يردد دوماً لي ولغيري من مسؤولي الوزارة: (انطلقوا في العمل والإبداع..

حدودكم السماء). كنت دوماً أطمح إلى الوصول إلى السماء، حتى أستطيع أن أقول حينها للناس: إن د. محمد الرشيد بدأ يحد من صلاحياتنا!

الخوف من المنافسة

في احتفالية إصدار العدد الأول من (المعرفة) كنت أهيئ نفسي لأداء دور الجندي المجهول. هكذا تعلمت أنه في المناسبات الكبرى وأمام الضيوف الفاخرين يختفي الجنود الذين يعملون، ويظهر القادة الذين يعلمون أو لا يعلمون!

أمام راعي حفل بقامة الأمير سلمان بن عبد العزيز، كيف لي أن أظهر؟! على المنصة كان الأمير وكان الوزير.. فأين التحرير؟

لم تدم تساؤلاتي طويلاً حتى فوجئت بالوزير يناديني لاعتلاء المنصة، لأقدم بيدي نسخة العدد الأول إلى الأمير، ثم أتمادى فأطلب من الأمير أن يوقع على أول قسيمة اشتراك في المجلة.. قال الأمير: سأدفع لكم رسوم الاشتراك لاحقاً، وبالفعل وصلت الرسوم حتى قبل صدور العدد الثاني.. إنها «المعرفة» حقاً.

كانت احتفالية خالدة، لم أكن أطمح أن أكون أكثر من أحد الحضور. لكن أريحية الوزير ونبله وثقته بنفسه لم تمنعه دوماً، وليس في ذلك الموقف فقط وليس معي فحسب، من تقديم وإبراز وتوجيب أعضاء فريق العمل الذين معه.

كان في كل عام يأخذ مسؤولي الوزارة للالتقاء بالملك فهد رحمه الله والملك عبدالله والأمير سلطان رحمه الله، والأمير نايف حفظه الله، وأصبح هذا اللقاء راتباً في كل عام ينتعش به مسؤولو الوزارة، ويشعرون أنهم شركاء مع الوزير في حق الالتقاء والحوار مع القيادة.

كانت هي التجربة الأولى من نوعها التي يقوم بها وزير.. وأخشى أنها الأخيرة!

الوزيـر الخفي!

في أحد الأيام كنت أجلس مع صديق مثقف يعمل في وزارة مثقفة، يحكي لي ازدواجية الثقافة والبرستيج، وأنهما لا يجتمعان إلا نزف أحدهما!

قـال لـي، برغم أنه مدير عام مؤثـر في وزارته، أنه لم يلتق وزيـره منذ أربعة أشهر، قلـت له بعفوية: ولماذا لم تبادر وتطلب مقابلته؟ قـال: أنا أتحدث هنا عن مدة انتظاري حتـى الآن لتحقيق طلب مقابلته! كانت المعلومـة كالصاعقة عليّ. أحياناً اختفاء الرئيس عـن موظفيه يساعد في ستر عيوبه ومحدودة إمكانياته، التي ستُجرب وتُفحص لو التقى بالموظفيـن والناس كل يـوم أو كل أسبوع. من الأفضل أن يبتعـد بالصورة حتى لا تتضح العيوب والبثور الموجودة في الأصل عن قرب!

سألني صديقي محمد: وأنتم كيف وضعكم؟ قلت له: نحن نلتقي مع (أبوأحمد) لقاءً أسبوعياً ولقاءً شهرياً ثابتين، ولقاءات فردية متاحة وميسرة كل حين.. قاطعني: من هو أبو أحمد؟ قلت الوزير د. محمد الرشيد. قال تنادونه أبو أحمد. قلت هو الذي طلب ذلك. قـال نحن ننـادي وزيرنا (معالي الوزير) ونخشى أننا أسأنـا الأدب. قلت لصديقي: أنتم تمنوا أولاً أن تلتقوا به، ثم نادوه بما يشاء!

أسطورة فريق العمل

علـى غرار (خرافة الصلاحيات).. تشكلت في ذهنـي أسطورة فريق العمل، التي لا تميز فيها بين الرئيس والمرؤوس، فالأداء الشامل هو الذي يتحكم في هذا الفريق.

مـع أبي أحمد شعـرت للمرة الأولى بـأن فريق العمل يمكن أن يظهـر في (حارتنا). عندما نلتقي في قاعة اجتماعات الوزارة، لا تستطيع التمييز بين الوزير والوكيل والمدير. الـكل لديـه نفس الفرصة والـوزن الاعتباري للتعبيـر عن رأيه وموقفه. أمـا في اللقاءات غيـر الرسميـة خارج الـوزارة فأنت لا تدري إن كان ثمـة وزير أو وكيـل أو مدير بين شلّة اللقـاء. لا تسمع حيـن التنادي داخل الـوزارة أو خارجها إلا: أبو أحمـد.. أبو تركي.. أبو

رافد.. أبوحسن.. أبو عبد المجيد.. أبو عبد الله.. أبو عبد العزيز.. أبو فلان.. أبو علان. وكل واحد من أعضاء (فريق أبو) يعرف أسماء وكنى الآخرين كأنها لأقاربه ومعارفه لا للزملاء في العمل.

عشر سنين من العلاقة الراقية / الرايقة لفريق عمل يزاول مهامه كما لو كانوا في بيت واحد، (سأنوه هنا أن فريق العمل ذلك لم يكن من الملائكة، وأن الإخوة في البيت الواحد قد يختلفون أحياناً).

الفجيعة

لم يكدر صفو العشر سنين البهيجة تلك سوى فجيعة فريق العمل المفاجئة بوفاة أحد أفرادها المحوريين: الدكتور إبراهيم الدريس، وكيل الوزارة الأسبق وأمين عام اللجنة العليا لسياسة التعليم. كانت تعليقات وتندرات أبي عبد الرحمن رحمه الله ذات مفعول سحري في إزالة الإرهاق أو تخفيف الانقباض الذي يعتري الفريق أحياناً.

كانت حكاياته الطريفة هي الوقود الذي يشحن مركبة الفريق نحو محطة أخرى، كما كانت عباراته الإيمانية الموجزة والمكثفة تهز أعضاء الفريق في لحظتها المناسبة، حيث يُحسن د. إبراهيم، غفر الله له وجعل ذلك في موازين أعماله، اختيار الزمان والمكان الملائمين لتلك الكبسولات الوعظية الفاعلة. (بالمناسبة المرحوم إبراهيم الدريس هو خالي شقيق والدتي حفظها الله، لكني أتحدث عنه هنا لا بوصفه خالي بل بوصفه أحد أعضاء فريق العمل، وبما وصفه ورثاه الآخرون من السجايا والخصال الكريمة له رحمه الله).

اليونسكو.. اللقاء الأول

لطالما سمعت وقرأت عن منظمة اليونسكو منذ بطولات مديرها العام الأسبق أحمد مختار أمبو، وحتى المحاولات البطولية لمرشحها العربي الأبرز د. غازي القصيبي رحمه الله.

كان حلمـي أن أرى اليونسكـو.. أن أدخلهـا.. أن أمكث في قاعاتهـا قليلاً.. أن أتذوق عصارة جدرانها المرتوية بالحبر والكلام.

في عام ٢٠٠٣ م تحقق الحلم، وفي عام ٢٠٠٦م تضخم الحلم!

في أكتوبر ٢٠٠٣ م كنت ضمن الوفد المشارك في المؤتمر العام للمنظمة الذي ينعقد كل سنتيـن، كانـت تلك الزيـارة مثل لحظة التقـاء العاشقين! كانت مـدة المؤتمر تطول وتمتد، ولذا كانت الوفـود تتناوب بالمجيء والذهاب حسب التخصص، لكن (أبوأحمد) طلـب مني استثناءً أن أمكث طوال مدة المؤتمر حتى أكوِّن تصوراً متكاملاً عن المنظمة، يكون نواة لملف شامل عن اليونسكو في مجلة المعرفة. وما كنت أدري، وما كان يدري، أن هذا التصور المتكامل سيكون نواة لشيء آخر يتجاوز الحلم إلى اليقظة!

عشرون يوماً من الحضور المتواصل لندوات اليونسكو كانت كفيلة بإنتاج ملف شامل متكامـل بالتعـاون مع الزمـلاء المهنيين المحترفين فـي فريق (المعرفـة) عن منظمة اليونسكـو فـي (٦٠ صفحة)، أظن أن كل من له مساس بالمنظمة لا يستغني عن مثل هذا الملف للتعرف عليها.

لم تتوقف علاقتي باليونسكو عند هذا الملف، فقد انساقت الأمور دون ترتيب مسبق إلـى تمدد حلـم اللقاء بعد حضوري مؤتمر عـام ٢٠٠٥م أيضاً، حيـن أبلغني بعده معالي الدكتور عبد الله العبيد وزير التربية والتعليم سابقاً بأنني قد رُشحت للعمل مندوباً دائماً للمملكـة العربية السعودية لدى منظمـة اليونسكو، وكان اللقـاء، الدائم هذه المرة حتى حين يعلمه الله، بدءاً من شهر مارس ٢٠٠٦م.

وبعـد..

سيقـول كثير من القراء: إنـي تحدثت عن الدكتور محمد الرشيـد أكثر مما تحدثت عـن فريق العمـل والوزارة والتربيـة، وسأقول: إن هـذا الاتهام صحيح، وهـو طبيعي في ذات الوقـت، فالناس والتاريخ دائماً ما يتحدثون عن قائد المعركة أكثر من حديثهم عن

الضبـاط والجنـود المشاركين. هكذا يُكتب التاريخ حتى فـي صورته المزيفة، فكيف إذا كان (أبـو أحمـد) هو المحور الحقيقـي، غير المزيف، في كل حكايـة، ليس لأنه الرئيس فحسـب، فهناك رؤساء كُثر هم من النوع الذي ليس له حكايات إلا مع نفسه أو السكرتير الملتصق به!

أبـو أحمـد.. كان رئيسـاً ومرؤوساً.. قائداً وجنديـاً.. آمراً ومأموراً فـي آن. وبرغم هذا التبسط والتنازل عن صرامة المنصب إلا أنه كان محافظاً على هيبته بمعادلة مذهلة يصعب فهمهـا على البعض أحياناً. فهو يضحك ويمازح ويتبسط مع الجميع، لكن عند حدوث الخطأ أو الخلل فإن الجميع ينسى أن هذا الرجل هو الذي كان يضحك معهم قبل قليل!

ستقولون أكثر من المديح!

سأقـول لكـم: إني لا أنزه أبا أحمـد ولا فريق العمل ولا الـوزارة ولا العشر سنين تلك مـن الخلل أو التقصير أو النقائص، لكن مقام هذا الكتاب ليس مقام نقد وتقييم، بل هو مقام ذكريات وأحاديث إخوانية، يجدر فيها ذكر الخصال التي تمثل الإخوانية بمفهومها الشامل النبيل.

وحسبـي أنـي مدحت أبا أحمـد صادقـاً الآن، إذ إني لا أمدح الوزير الـذي كان.. بل الإنسان الذي هو كائن حتى الآن.

والله الموفق لكل خير..